المحاضرة السابعة : البنيوية التكوينية

د: رويدي عدلان

تمهيد:

شهدت أوروبا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحوّلات وهزات عديدة على مختلف المستويات والأبنية، السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ممّا شكّل وعيا جديدا خصوصا مع ازدهار الفلسفة الماركسية في أوروبا عامة وروسيا خاصة، التي كانت تمثل التربة الخصبة لهذا الفكر الذي يتلاءم وطبيعة النظام السياسي السائد، وتمثل فترة حكم لينين أزهى فترات هذا الفكر، حيث شمل مختلف المعارف والفنون والآداب، والنقد الأدبي على غرار باقي العلوم والفنون تأثر بالفلسفة الماركسية، واستفاد من مقولاتها الأساسية في تفسير الظواهر الأدبية وربطها بسياقاتها الاجتماعية، وبظهور الفكر البنيوي ت ا رجع النقد الاجتماعي ليفسح المجال أمام الدراسات النصية، التي تسلطت بمقولاتها على النصوص الأدبية وعزلتها عن مختلف الظروف الخارجية التي لها دور فاعل في ولادة النصوص، لذلك حاول البعض الجمع بين استلاب البنية، وارتداد الممارسة الاجتماعية، فظهرت البنيوية التكوينية، التي قاد لواءها لوسيان غولدمان [1]، هذا المنهج أصبح يمتلك شرعية علمية ضمن مناهج النقد الأدبي وصار أكثر تداولا وانتشا ا ر في فرنسا وأوروبا وحتى في البيئة العربية، بفعل الظروف التي شهدتها البيئة العربية، وطبيعة المنهج والآليات التي يعتمدها في تحليل النصوص.

1-تعريف النموذج الغولدماني:

استفاد لوسيان غولدمان من مقولات أستاذه الناقد والمفكر المجري جورج لوكاتش ليضع المبادئ النظرية لسوسيولجيا الأدب كاتجاه مستقل ضمن النقد الاجتماعي، وقد حاول المزج بين البنيوية اللسانية والفكر الماركسي، وذلك من خلال دمج البنيات النصية مع البنيات الاجتماعية من أجل الوصول إلى الإيديولوجيا التي تحكم النص الأدبي والتي تمثل وعي طبقة معينة من طبقات المجتمع، فالأعمال الأدبية لا تعبّر عن الأف ا رد وانّما تعبّر عن الوعي الطبقي للفئات والمجتمعات المختلفة، بمعنى أنّ الأديب وان كان فردا لكنه يختزل فيه ضمير الجماعة ورؤية الجماعة التي ينتمي إليها [2] ، فيذوب الضمير الفردي في الضمير الجمعي الذي يمثل السلطة الحقيقية التي شيّدت معمارية النص، ولكل أديب طريقته في تمثيل هذه الإيديولوجيا، ويوجد اختلاف كبير في درجة الوعي بين الأدباء في

[1] محمد سالم سعد الله :سجن التفكيك الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، ص47

[2] صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر، ص56

تحقيق هذه البنية، فهناك أدباء يمتلكون وعيا مزيّفا فيعبّرون عن منظورات شخصية وغالبا ما يسقط إنتاجهم في الإهمال والنسيان لأنّ القارئ لا يجد فيه ذاته وأحلامه ووعيه بالأشياء، وهناك أدباء آخرون يمتلكون القدرة على التمثيل الصحيح للوعي الصادق والحقيقي والممكن لأنّ هناك درجات في الوعي الحقيقي المنجز بالفعل والوعي الممكن المستشرف للمستقبل والمكتشف لآفاقه [3].

2آليات عمله- :

يشتغل هذا النموذج وفق استراتيجية خاصة، تبحث عن العلاقة بين الأعمال الأدبية والواقع الاجتماعي على مستوى التناظر والتماثل بين البنيات الأدبية والبنيات الذهنية المشكّلة للوعي الاجتماعي، ضمن رؤية نقدية تهتمّ بالبنية الداخلية والفنية للعمل الأدبي وبأبعاده الاجتماعية والأيديولوجية، وهذا عن طريق بنية الفهم وبنية التفسير.

2 1بنية الفهم- - :

تتعلق بالنظام الداخلي الموجود داخل الأثر الأدبي فهو متشكل من جمل أو كليات يمكن فهم أجزائها انطلاقا من الأجزاء الأخرى، وتفهم على أحسن وجه انطلاقا من بنية المجموعة [4] ، فهي تتعلق بالبنية الداخلية التي تتشكل من بناء لغوي متكامل يشكل بنية صغرى ضمن بنية كبرى أكبر وأعمّ.

2 2بنية التفسير- - :

وهي تشكّل البنية الكبرى للعمل الأدبي وهي بنية شاملة، ومهمتها إقامة العلاقة بين الأثر الأدبي والعالم الخارجي[5]، حيث تفتحه على البنية الاجتماعية والإيديولوجيا التي تحكم مفاصل النص، ولكن هذا لا يتم إلاّ بإقامة العلاقة بين البنيات الدلالية المنتزعة بواسطة القراءة التفسيرية، وبين البنيات الذهنية المكونة للوعي الجماعي لفئة أو طبقة اجتماعية [6]، لذلك تلتقي بنية الفهم مع بنية التفسير ويذوبان مع بعضهما البعض في زمن واحد، وعندما يحدث التوازي بينهما تتحقق رؤية العالم، التي تمثل جملة من الأفكار أو المعتقدات التي تؤمن بها جماعة معينة وهي إيديولوجيا تفرض وجودها داخل النصوص الأدبية.

---

[3] المرجع نفسه :ص 57

[4] . محمد نديم خشمة :تأصيل النص المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان، مركز الانماء الحضاري، ط1 1997ص10

[5] . محمد نديم خشمة :تأصيل النص المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان، ص11

[6] المرجع نفسه.:ص. ن

وعلى ضوء هذه الرؤية فهذا المنهج يهتمّ بمستوى الفهم، أي تحليل البنية الداخلية للنص بتفكيك عناصره المكوّنة ومساءلتها وبمستوى التفسير، أي ربط العمل الأدبي بالواقع التي تؤول عليه باعتباره يمثّل رؤية للعالم لدى فئة معينة اجتماعية ما.

وبهذا الفهم الجديد في مقاربة الظاهرة الأدبية تجاوز غولدمان نظرية الانعكاس وأعطى للأدب مكانة داخل الحقل المعرفي الاجتماعي.

إنّ المنهج الجولدماني يركّز على إرساء نوع من العلاقة التناظرية بين البنية الاجتماعية السوسيولوجية من جهة، وبين بنية الأثر الأدبي باعتبارها بنية دالة من جهة أخرى يقول جولدمان" :يتأتى الطابع الأدبي الجماعي للإبداع الأدبي بالنسبة للبنيوية التكوينية من واقع أنّ البنى العمل الأدبي تناظر البنى العقلية لفئات اجتماعية معيّنة، وهي علاقة محسوسة لها، بينما يملك الكاتب حرية كاملة على صعيد المضامين، أي على صعيد إبداع عوالممتخيلة مدارة من جهة هذه البنى. " [7]

ومنه فلوسيان جولدمان قدّم من خلال البنيوية التكوينية تصوّ ا ر منهجيا ذا حمولة أيديولوجية تستند إلى رؤية العالم كأنموذج تفسيري أكثر تجديدا، وهو ما أضفى على التحليل الجولدماني نوعا من التقصّ ي والتعمّق التأويلي لبنى النصوص الأدبية.

الإضافة الحقيقية لهذا المنهج هي أنّه لم يغفل الجانب الكيفي في دراسته للأعمال الأدبية بل اعتمد على وجه التحديد على الجانب الكيفي في دراسته للأعمال الأدبية بل اعتمد على وجه التحديد على هذا الجانب القيمي الكيفي لشرح مدى العلاقة بي الأعمال الأدبية والوعي الجماعي عندما جعل مستوى الأديب يتمثل في قدرته على صياغة رؤية للعالم هي التي تعبّر عن الوعي الجماعي المتحقق والممكن في الآن ذاته [8]

3البنيوية التكوينية في الوطن العربي- :

هيّأت الظروف السياسية أو الاجتماعية في بلاد المغرب العربي للنقاد والدارسين الجوّ المناسب من أجل تبني المنهج البنيوي التكويني، خصوصا مع انتشار الفكر التحرري، والدعوة إلى استقلال تلك الشعوب من نير الاستعمار الفرنسي، إضافة إلى عنصر المثاقفة والعلاقة التي تربط المغرب العربي بأوروبا الغربية وبفرنسا خصوصا.

[7] . زياد العوف :الأثر الإيديولوجي في النص الروائي(ثلاثية نجيب محفوظ)، مؤسسة النوري للطباعة والنشر، دمشق 1993ص192

[8] صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر ص ، 59-58

كل هذه المعطيات ساعدت على رواج هذا المنهج في هذه الرقعة الجغرافية دون غيرها من بلاد المشرق العربي، التي لم تشهد نموا كبيرا لهذا المنهج سواء في الدراسات التي تتعلق بالشعر أو التي تتعلق بالرواية والقصة والمقال والمسرحية.

وقد شهدت الساحة النقدية بالمغرب الأقصى انتشارا لهذا المنهج، حيث تلقّفه الناقد المغربي بحيوية كبيرة، واستقبله بحماس كبير، وفي هذا الصدد يمكن ذكر مجموعة من الأعمال النقدية الشهيرة في هذا المجال ومنها كتاب محمد بنيس" ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب مقاربة بنيوية تكوينية"، حيث اشتغل على دراسة نماذج شعرية بالاستناد إلى فكرة رؤية العالم [9]

والى جانب هذا الناقد نجد كتابين آخرين لحميد لحميداني" النقد الروائي والإيديولوجيا"

وكتاب " الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دراسة بنيوية تكوينية"، الذي طبّق هذا المنهج على نصوص روائية مغربية تنتمي إلى الفترة الحديثة، كما نجد بعض البحوث والدراسات النقدية لمحمد ب ا ردة، إضافة إلى عدّة دراسات أخرى لنقاد ودارسين تنوّعت بين الشعر والرواية، كدراسة نجيب العوفي في كتابه " مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية."

وعلى غرار النقاد المغاربة نجد في تونس مجموعة من النقاد، الذين استثمروا هذا المنهج في دراساتهم النقدية والأكاديمية، خصوصا الذين درسوا في فرنسا، الموطن الأصلي لهذا المنهج وفي مقدمة هؤلاء النقاد، نجد الطاهر لبيب الذي تتلمذ على يد لوسيان غولدمان، حيث اشتغل على دراسة ظاهرة الغزل العذري في العصر الأموي درسها من ناحية تعبيرها عن رؤية العالم لفئة اجتماعية وهم الشعراء العذريون، وهذا في كتابه "سوسيولوجية الغزل العربي:دراسة الشعر العذري نموذجا"، حيث حاول أن يقيم علاقة بين ظاهرة الغزل العذري بوصفها ظاهرة متميزة في تا ريخ الشعر العربي في الفترة الأموية من ناحية وطبيعة الأبنية الاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء الشعراء من ناحية أخرى [10] ، وقد توصل إلى أنّ هذا النمط من الشعر قد عكس بالفعل تلك البنى الكبرى التي تسم المجتمع الأموي في تلك الفترة.

والى جانب الطاهر لبيب هناك دراسة أخرى لجمال شحيد بعنوان" البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان"، وفي لبنان نجد الناقدة يمنى العيد وهذا في كتابها" في

[9] ينظر محمد بنيس :ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب مقاربة بنيوية تكوينية، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2 ،1985

[10] صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر، ص59-58

معرفة النص "حاولت فيه تسويغ النقد الجديد بالاستفادة من كشوفات الشكلانية والبنيوية [11]

واذا عدنا إلى النقد الج ا زئر فإننا نجد محمد ساري الذي يعدّ من أوائل النقاد الذين استثمروا هذا المنهج في دراسة مجموعة من النصوص الروائية، وهذا من خلال كتابه" البحث عن النقد الأدبي الجديد"، إلى جانب مجموعة من الدراسات الأكاديمية في الجامعات.

ويمكن القول أنّ البنيوية التكوينية وجدت في البيئة المغاربية التربة المناسبة، من أجل النضج والبروز أكثر مقارنة ببيئة المشرق، التي لم تعرف رواجا كبي ا ر لهذا المنهج.

[11] عبد الله أبو هيف :النقد الأدبي العربي الجديد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 20000 ص372